

ما الذي يُفشل الثورة السورية (1)

الكاتب : سامي إبراهيم

التاريخ : 19 مايو 2013 م

المشاهدات : 4983



من يقود الثورة في سوريا ومن يرسم طريقها؟

من يوجه الشباب الثائر؟

من يخطط لمستقبل ومصير الثورة؟

هل ستقيم القوى الثورية سوريا الجديدة الحرية الديمقراطية ولن يستطيع أحد أن يبدد تضحيات السوريين؟

هل نحن أمام ثورة للديمقراطية والحرية أم إعادة إنتاج الاستبداد بصورة أخرى؟

في اللحظة التي يتغير بها وعي الشعب ليصبح قادرا على الرفض وقول "لا" هي اللحظة التي تتزعزع فيها اسس النظام المستبد وتتخلل شرعيته وتبدأ بنائه بالتفكك والانهيار، عندئذ فإن آلة القمع العسكرية التي يمتلكها النظام لن تعود قادرة

على حمايته من البركان الداخلي المستعد للانفجار "الشعب"، والكلام عن "مؤامرة ومتدينين وخونة وفبركات..." ستبقى مجرد ترهات لن تقنع شعباً ثار من أجل حياة أفضل.

الثورة السورية بغض النظر عن معيقات نموها وثغراتها ومواطن ضعفها والتي تعمل على تمييع المفاهيم الجديدة التي حملتها فإنها نضال من أجل الحرية، الحرية مطلب جميع السوريين، والكافح من أجل الحرية دافع جميع السوريين، من أجل هذا النضال والكافح تكونت تصورات وتبلورت تطلعات وبنيت آمال ورسمت أحلام ووضعت أهداف، وعليه فإن أي نظام قادم في سوريا الجديدة لن يحقق مطالب الشعب بالحرية التي قدم على مذبحها قرابة عشرات الآلاف السوريين لن يكون إلا تقهراً واستمراً لعهود الاستبداد والقمع والقهر والاستلاب.

وبما أن الحرية هي الشرط الوحيد لخلق حياة ديمقراطية هذا معناه بأنه إن لم توجد حرية فلن توجد أية وسيلة قانونية تستطيع بها القوى والتيارات أن تعبر عن نفسها، وبالتالي فإن الشعب السوري مجبرٌ على التخلص من نظام القمع والاستبداد الذي يشكل العقبة الأولى أمام تطلعاته في الحرية.

أما الخوف من أي خطأ أيديولوجي يحمله وينادي به أي تيار يعمل في قوى الثورة لا يمكن أن يكون مبرراً لضرب مسيرة الثورة، ولا يستطيع أن يكون عائقاً في وجه تطلعات الشعب السوري.

وبطبيعة الحال فإن أي ممارسة استبدادية قمعية من أي جهة كانت حتى لو حاربت النظام الحالي ستقابل بالرفض التام والمقاومة من قبل الشعب الذي لن يرضى أن يعود سنوات قهره واستعباده من جديد.

وإن كان هناك من طريقة لكشف الوجه الحقيقي لجميع القوى التي تنادي بسوريا المستقبل ومدى التزامها بالبرامج والشعارات التي تطرحها فإن مزيداً من الحرية كفيل بأن يبلور الوجه الأمثل لكل ما يأمل به السوري من ثورة الحرية والكرامة.

تتعرض الثورة السورية لموجة من التشكيك، تتحول هذه الشكوك لسبيل من الظروف المضادة، لتبرز ضرورة ملحة للقيام بعملية نقد ذاتي شامل على ضوء الواقع والصور التي تفرزها أحداث الثورة.

ثبتت الواقع أن الثورة السورية ثورة بلا قيادة ولا تملك برنامج أو أيديولوجياً ولا طبقة واضحة الملامح، بقدر ما تتشبث القوى السياسية بالإنجازات العسكرية التي يمكن أن يتحققها المقاتلون وتغيير موازين القوى على الأرض.

الثورة لم تستطع إلى حد الآن الذهاب لأبعد من الشعارات والنصوص الكلامية، وقوى المعارضة السياسية اكتفت بمجرد طروحات نظرية تقدم معالجة للأخطاء القديمة، بدلاً من العمل على خلق ظروف أفضل بقصد جعل الحياة أكثر حيوية وملائمة.

عملية التحرير للمجتمع تبدأ من تحرير الإنسان السوري، تحرير العقل من رواسب الماضي في التقديس والتمجيد والتاليه، تحريره من الخوف ليقول ما يريد ويرفض ما يريد، وانتظار سقوط النظام للبدء بعملية التحرير هو تصور منقوص، لأن التحرير لا يبدأ عند انتهاء الصراع ضد العبودية، بل بالتزامن معه.

تغير نظام الحكم لا يعني أن الثورة قد انتصرت، لأن أي تغيير في منظومة الحكم لا يرافقها تحرير للإنسان ما هو إلا إعادة إنتاج لمنظومة استبداد جديدة تعيد حالة الاستعباد للشعب السوري.

الثقة في تحقيق المنجزات في بداية الحراك أعطت بارقة أمل للتغيير الواقع السوري بشكل جذري، أي تغيير بنية المجتمع ونمطيته التي فرضها نظام الاستبداد، لكن هذه الثقة لدى غالبية الشعب السوري اهتزت، لماذا؟ بسبب العقلية وأسلوب العمل في طريقة تعاطي قوى المعارضة مع الواقع والضغوط الهائلة التي فرضتها الظروف المنتجة.

قوى الثورة وعلى الرغم من أنها اتخذت من الحرية المنارة التي يهتدى إليها السوريين ولكنها لم تأخذ في حسابها الأسس المبدئية التي يجب أن ترتكز عليها وهي الاحاطة بالظواهر الاجتماعية والتاريخية التي أفرزت منظومة الاستبداد الهجينة "الجمهورية الملكية" هذه بوصفها جزء لا يتجزأ من ثقافة مجتمع، فمحاربة النمط اي أسلوب الحياة الاجتماعي والفكري الذي انتج النظام الهجين هذا كان سيضمن فاعلية أكبر لقوى الثورة ويزيدوعي بضرورة الخلاص ويقدم دراسة شاملة لطبيعة العلاقات الأساسية التي تربط النظام بالمجتمع.

لذلك فقوى الثورة فشلت إلى حد كبير في هد هيكليه النظام وضرب علاقاته وفك تحالفاته، لم تفعل سوى إقامة علاقات وتجمعات متفرقة لم تتبلور لديها الآلية التي تغير بها مسار العملية الانتقالية من هذا النظام الهجين المستبد إلى نظام ديمقراطي يحقق طموحات السوريين.

توحيد جهود القوى الثورية لو تم:

- كان سيوفر الكثير من الجهد والوقت

- وكان سيقلل الخسائر في الأرواح والممتلكات والمعوقين والمهجرين والمشددين والنازحين

- ويقي مؤسسات الدولة من هذا الانهيار المرير

- ويخرج المجتمع الدولي مجبراً إياه على التدخل

- وبالتأكيد من شأنه أن يعدل في سقوط النظام

ولكن بدلاً من ذلك تخبطت قوى المعارضة ودخلت في صراعات داخلية وشخصية وأيديولوجية وارتہنت لحسابات وأجندة لا تصب بالضرورة في مصلحة الشعب السوري.

شلل قوى المعارضة بشقّها السياسي اثر سلباً على الجناح العسكري في الميدان ما أدخل اليأس للقلوب وساهم في خلق هذا الواقع المزري الذي نعيشه، مهداً الطاقات، مولداً شعوراً بالمرارة والألم والخذلان، أدى لتقييم الدور الاجمالي للمعارضة السياسية، مفسحاً المجال لتجاذب القضية السورية اقليمياً ودولياً، وتكون قوى المعارضة كأحجار الشطرنج، لاثقل لها ولاقيمة، ليكون شعار السوري (الشهادة) أو (الهجرة)!

الانهيار الاقتصادي الكبير والظروف المعاشرية الفاسدية أفقدت العديد من السوريين الإيمان بالديمقراطية والحرية، وبالتالي أنتج حالة من القنوط واليأس في جدو ما يمكن ان تقدمه الثورة ونتائجها المرجوة في ظل هذه التحديات السياسية والاقتصادية التي تواجه البلد.

فالثورة السورية لم تقم من أجل الديمقراطية وتداول السلطة او حق الانتخاب فحسب، بل ايضاً من أجل ان تخلق طريقة حياة افضل يعيشها الناس، ومن أجل تحقيق نجاح ملموس في الحياة اليومية.

طول فترة الصراع انهكت الشعب السوري، والنظام لعب على ورقة الحصار والتجويع محولاً حياة السوري جحيناً لا يطاق، وليجعله يتمنى رغيف الخبز وقطرة الماء عقاباً له على تجرئه وتطاوله على المقدس، ليكون الجوع والبطالة والفراغ والانفلات الأمني من خطف وسلب ونهب وقتل دوراً في اضعاف الثورة الحقيقة للشعب السوري، وما انفكت هذه الظروف المضادة تضرب الهدف الحقيقي من الثورة.

في ظل هذه المعممة وتخبط مواقف وآراء المعارضة وتشذبها وتفككها فإن الجميع يتتسائل عن شكل النظام الذي سيحكم سوريا والآلية التي سيعتمدها لبناء سوريا الجديدة الحرة الديمقراطية، وعلى الرغم من أن هذا التساؤل هو طرح استباقي

مستقبلٍ مجهول والمستقبل هو المطالب بالإجابة عليه وهو سيجيب عليه، ولكنه يحمل إجابة مبطنَة لا تخفي على أحد، فالتساؤل هنا يُبرز ويعرّي مدى قدرة الشعب السوري على فهم واستيعاب وتطبيق الديمقراطية في مجتمع غير مهتم للديمقراطية، لمنعه قيود عبوديته التي عاشها لسنوات طويلة من أن يسير حراً غير قادر على الاستيقاظ من صدمة الحرية التي حلَت كالصاعقة على العقل المستعبد، ليتم تصوير مستقبل سوريا كبلد غارق في مستنقع حرب أهلية ممزقة الجسد السوري، ويتم تسويق الديمقراطية كأنها سلاح خطير محسو ملقم في يد طفل يلهو به ويعبث.

ليحمل هذا الطرح تشاوئاً وياساً للقلوب وتيقُّن من أن المستقبل هو مظلم قاتم، والبديل هو منظومة التطرف الديني! فلا شيء تغير في عقلية الإنسان، والسوبر يسيبقي مسلوب الإرادة! لأنه عاش سنوات كثيرة مسلوب الحرية!

وكأن قدر الشعب السوري أن يعيش العبودية!

وكأن الديمقراطية محمرة على أعرق شعوب الأرض!

وكأن المستقبل المظلم سيتوقف عند مرحلة واحدة تسودها الفوضى والظلمانية!

وكأن المستقبل قد تحقق! بينما لا يوجد واقع وحاضر مزري أكثر بؤساً وشقاً وجحيناً من الواقع الذي يعيشه السوري! متى استورد شعب ديمقراطيته؟! متى استوعب شعب ديمقراطية فرضت عليه؟!

يتحمَّل المنطق وحركة التاريخ على الشعب السوري أن يعاني ويتألم وهو يمر بكل مرحلة من مراحل التغيير والتحول الذي تحمله ثورة الحرية بطريقة تراكمية حتى تصبح الديمقراطية التي يحلم بها منبثقة من تطور وعي الشعب السوري نفسه كثقافة وإدراك وتجارب.

الديمقراطية الحقيقية تأتي من خلال ثقافة الشعب والفكر وبناء الشخصية، بحيث يكون السوري واعياً لما له وما عليه والأهم يكون فرداً مشبعاً بالوطنية.

السوريون يدركون أن هذا النظام لم يسقط بعد، وجُزءٌ من هذا الفشل مسؤولة عنه قوى المعارضة، النظام لا يزال يحكم وقدر على الوصول لأي منطقة من الأرض السورية مستخدماً تفوقه الجوي الذي يقوم بعشرات الغارات اليومية على المناطق المحررة "نظرياً" لكن فعلياً لا توجد منطقة محررة بالمعنى العسكري الناجز، واستخدامه مؤخراً لصواريخ إستراتيجية بعيدة المدى يكشف بها المنطقة التي يشاء ويتغطية دولية ودعم سخي من قبل حلفائه الأساسية يؤشر بوضوح على قدرة النظام على إيهاد هذه المناطق وضرب استقرارها.

إذاً فالثورة يُحكِّم عليها بعد انجاز مهامها، ومن سيجيب على السؤال الأصعب "هل بمقدور القوى الثورية بناء سوريا حرة ديمقراطية" هي المنظومة التي ستصل لسدة الحكم والتي تنادي الآن بالحرية والديمقراطية التي ثار من أجلها الشعب السوري!

برامج الكيانات السياسية مثالية وخطاباتها براقة في تصوير المستقبل، لتقديم قوالب جاهزة لديمقراطيات غربية قطعت دولها أشواطاً ومراحل متقدمة لتتباهى لديها الحالة الديمقراطية الغربية.

ولكن وبكل الأحوال فإن تشتت المعارضة أو التشكيك بمدى قدرتها على ممارسة الديمقراطية وتطبيقاتها وصحة ادعاءاتها لن يعفي النظام من وحشية ومن مسؤولية التدمير الممنهج لسوريا ولن يشفع له بالبقاء في سدة الحكم، وبالتالي فإن أي طرح يشكك بمن سيحكم سوريا المستقبل لن يكون السبب الذي يُقنع الشعب بتوجس أي أمل مرجحٍ من هذا النظام المستبد الفاشي. وبالتالي لن يكون عائقاً في سبيل الحرية التي يقاتل من أجلها من يقاتل.

بالتأكيد فإن الحكم الديمقراطي يستطيع تحقيق كل ما هو ضروري لبناء الحياة التي يطلبها السوري ولكن يبقى السؤال المهم: متى يصبح الشعب السوري قادراً على بناء المستقبل والحياة الرغيدة دون أن يرغم على التمجيد والتاليه والامتنان؟!.

المصادر: